الوصف في شعر كشاجم
دلالته الفنية وقيمته الاجتماعية

الدكتور عصام عبد علي
قسم اللغة العربية
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

كان فن الوصف في الشعر من الفنون المزدهرة في القرن الرابع للهجرة معبراً عن تفصيلات الحياة الجديدة وأبعادها الحضارية ، وقدر لهذا الفن أن تتنوع أغراضه وصوره وطرائقه على رغم ما اعتراه من تعسف الصنعة وشيوع المحسنات الا ان هذه الجوانب لم تخفِ السمات الجديدة التي وسمت هذا الفن الشعري بخصائص جديدة معبرة عن حياة القرن الرابع للهجرة وتطورها ونضجها الثقافي والاجتماعي والادبي .

ولعل النظرة الفاحصة في يتيمة الدهر للثعالبي توضح لنا الى حد بعيد ما حقق هذا الفن الشعرى من شيوع ، وقد اعتاد الثعالبي ان يفرد فصولا لاوصاف الشعراء ، ولم يقف عند ذكر الاوصاف التقليدية التي تداولها الشعراء ، وانما توجه الى الاتجاهات الجديدة للوصف من حيث دقته في الصورة ، وميله الى تسجيل تفصيلات الحياة في صياغة فنية ووصف الطبيعة والعواطف والافكار.(١)

---

(١) يتيمة الدهر الثعالبي : تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٢ ، دار الفكر بيروت ١٩٧٣ ، ج ١ ، ص ٦٠ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ٢٦٣ ، ج ٢ ، ص ١٦٧ – ١٨٢ ، ج ٤ ، ص ١٧٢ وما بعدها وانظر الوصف في شعر العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، الدكتور جميل سعيد ، مطبعة الهلا ل ، بغداد ١٩٤٨ ، ص ٣٠٩ – ٣١٠ .
ومهيار الديلمي حياته وشعره : للدكتور عصام عبد علي ، دار الحرية – بغداد ١٩٧٦ ، ص ١٩١ ، ١٩٣ .

والثعالبي لم ينقل في كتابه اليتيمة ما قاله الشعراء من غرر الوصف والتشبيهات فحسب وانما أدرك بحسه النقدي أن في الشام منهجا واسلوبا في الشعر له طراوته وظرافته ، فشعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق فهم في تقدير الثعالبي يجمعون بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ، والمولودون منهم رياض الشعر وحدائق الظرف ، ثم يذكر لنا المؤلف اسماء عدد من الشعراء بينهم شاعرنا كشاجم وصديقه أبو بكر الصنوبري (٢) ، وفي حديث الثعالبي عن الشاعر السري الرفاء يشير بشكل غير مباشر الى السمات الجديدة لشعر الوصف وكيف يختلط شعر الخالديين بشعر كشاجم ، ولا ينس الثعالبي الاشارة الى ان السري الرفاء يذهب على طريقة كشاجم وعلى قالبه يضرب (٣) .

وكانت التفاتة آدم متز في كتابه الحضارة الاسلامية بارعة في تقديم سمات هذا المنهج الشعري عند حديثه عن شعر القرن الرابع للهجرة وقدرة شعراء هذه الحقبة في الوصف ورغبتهم في النظر بأعينهم نظرة فنية عبروا عنها بشعرهم (٤)، ويميز آدم متز شاعرين حديثين من بلاد الشام لهما المكانة الكبيرة في هذا الميدان اولهما ابو بكر الصنوبري (٥) ، وثانيهما كشاجم ، اذ أنشأ هذان الشاعران قصائد كثيرة تغينا بالطبيعة وأجادا وعبرا عن ولعهم بها وشاع هذا المنهج وتداوله الشعراء العرب في تفصيلاته وصيغه الفنية (٦) .

وشاعرنا أبو الفتح كشاجم لم يحظ باهتمام كبير في كتب التاريخ والرجال والادب فهي لاتشير كثيراً الى تفصيلات حياته رغم ما ناله من مكانة في دنيا

---

(٢) يتيمة الدهر : ج ١ ، ص ١٢ .

(٣) اليتيمة : ج ٢ ، ص ١١٨ ، وانظر ص ١٨٤ ، ١٩٩ .

(٤) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري : آدم وتز ، نقله الى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة – الطبعة الرابعة – بيروت ، ١٩٦٧ ج ١ ، ص ١٩٦ .

(٥) انظر دراسة الدكتور جلال الخياط « الصنوبرى الشاعر » مجلة الاداب – العدد الرابع عشر – مطبعة المعارف – بغداد سنة ١٩٧١ .

(٦) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين : الدكتور مصطفى الشكعة – مطبعة المعرفة القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٤٦٠ ، ٤٦١ .

الشعر وفي فن الوصف ، ولعل من أولى الاشارات الى حياته ماذكره المسعودي في مروج الذهب حين عده من أهل العلم والدراية والمعرفة والادب (٧) ، وتنقطع أخباره وينساه صاحب الوفيات الا انه يذكره في ترجمة السري الرفاء المغرى بنسخ ديوان ابن الفتح كشاجم ويؤكد ابن خلكان ان كشاجم كان اذ ذاك ريحانة الادب والسري الرفاء على طريقه يذهب وعلى قالبه يضرب (٨) .

وتنقطع اخبار كشاجم في كتب التاريخ والرجال لنجد بعد ذلك ترجمة حسنة له في فوات الوفيات وتشير الترجمة الى أن محمود بن الحسين ابا الفتح الكاتب المعروف بكشاجم من أهل الرملة من نواحي فلسطين ، ولقبه يشير الى العلوم التي ينقنها كما يقول كشاجم ، فالكاف من كاتب والشين من شاعر والالف من اديب والجيم من جواد والميم من تنجيم. واشار صاحب فوات الوفيات الى مؤلفاته وتصانيفه وذكر من كتبه : كتاب آدم النديم والمصايد والمطارد وكتاب الطبيخ كما يشير الى ان وفاته في حدود سنة الخمسين بعد الثلاثمائة (٩) ، ولا يضيف ابن العماد الحنبلى جديداً الى تفصيلات حياة الشاعر الا أنه يذكر فضله وعلمه ويقول عنه انه كان رئيسا في الكتابة ومقدما في الفصاحة ويروى انه كان طباخا لسيف الدولة كما يصف شعر الشاعر بالاناقة (١٠) .

ويبدو ان اقامة الشاعر كانت في حلب فهو من معاصرى بني حمدان وفيها تلقى العلم والادب على شيوخها (١١) ، وقد وصفه معاصروه بالبراعة في الادب

---

(٧) مروج الذهب ومعادن الجوهر : ابو الحسن علي بن الحسين المسعودى ، باريس ١٧ × × ١ جـ ٨ ، ص ٣١٨ .

(٨) وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان : ابو العباس شمس الدين أحمد بن محمد أبن ابى بكر بن خلكان ، حققه الدكتور حسان ا عباس – دار صادر بيروت – المجلد الثاني ، ص ٣٦٠ وقد استمد ابن خلكان روايته من الثعالبي ، أنظر الحاشية (٣) .

(٩) فتوات الوفيات : محمد بن شاكر الكتبي ، تحقيق الدكتور احسان عباس – دار صادر – بيروت ١٩٧٤ – المجلد الرابع ، ص ٩٩ .

(١٠) شذرات الذهب في اخبار من ذهب : أبو الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي ، المكتب التجارى للطبع والنشر والتوزيع – بيروت – جـ ٣ ، ص ٣٧ – ٣٨ .

(١١) فوات الوفيات : المجلد الرابع ، ص ٩٩ .

واللغة والشعر والرواية والحكمة والطب والكتابة (١٢) ، كما عده ابن النديم من طبقات الكتاب والخطباء والمترسلين في عصره (١٣) .

وديوان الشاعر لايلقي الضوء الكثير على حياته الخاصة وعلاقاته وسيرة حياته الا ان كتبه وتصانيفه ورأى كتب التاريخ والرجال فيه تؤكد سعة ثقافته ومعارفه كما يشير شعره الى العراق ووصفه لحياة الاديرة في الانبار وسفره الى مصر واقامته هناك ، وقد نقل الشابشتي ابياتا من شعره في وصفه لدير القصير في مصر :

سلام على دير القصـــير وسفحه فجنات حلوان الى النخلات

منازل كانت لي بهن مــآرب وكن مواخيري ومنتزهاتي (١٤)

وفي ديوان الشاعر ذكر كثير لايامه اللاهية في أديرة العراق في سامراء والانبار وله قصائد أخرى يصف جمال مصر وايامه فيها (١٥) .

ويبدو أن الشاعر لم يكن قريبا من الحكام في زمانه ، وقصائد المديح القليلة في ديوانه طابعها أخواني واكثرها مع اصدقائه الذين يشاركونه حياته اللاهية ، ولعل العلاقة الوحيدة الجديرة بالاهتمام هي علاقة الشاعر بأبي بكر الصنوبرى وكتب التاريخ والادب تؤكد هذه العلاقة على الصعيد الفني والشخصي ، وتبدو هذه العلاقة صداقة وطيدة على صعيد الفن والحياة اللاهية والمنهج الشعرى ، والقصائد المتناثرة في ديوانى الشاعرين تؤكد هذا الافتراض (١٦) .

---

(١٢) أنظر المسعودى : ج ٨ ، ص ٣١٨ .

(١٣) كتاب الفهرست : ابن النديم ، تحقيق رضا تجدد – ظهران – ١٩٧١ ، ص ١٩٤ ، وأنظر شذرات الذهب ، ج ٣ ، ص ٣٧ – ٣٨ ، ومقالة الدكتور أسعد طلس « الحياة الا جتماعية في القرنين الثالث والرابع » ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مطبعة التغيض ، بغداد سنة ١٩٥١ ، الجزء الثاني ، ص ٢٧١ – ٣٠١ .

(١٤) الديارات : أبو الحسن على بن محمد الشابشتي – تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة المعارف – الطبعة الثانية – بغداد سنة ١٩٦٦ .

(١٥) ديوان كشاجم : تحقيق خيرية محمد محفوظ – مطبعة الجمهورية ، بغداد ١٩٧٠ ، ص ١١٧ ، ٢٢٣ .

(١٦) ديوان الصنوبرى : احمد بن محمد بن الحسن الصنوبرى – حققه الدكتور احسان عباس – دار الثقافة – بيروت ١٩٧٠ ، ص ٤٥٧ .

ويشير كشاجم الى هذه العلاقة ويؤكدها في قوله :

جسمان والروحان واحدة كالنقطتين حداهما حرف (١٧)

ويقول مخاطبا صديقه الصنوبرى مذكراً اياه بعلاقة الود والحب :

أتنسى زمناً كنا به كالماء والخمر

اليفين حليفين على الاعسار واليسر

نرى في فلك الآداب كالشمس وكالبدر (١٨)

وديوانا الشاعرين يؤكدان ويعطيان الدليل على وثوق العلاقة الشخصية والفنية بينهما فكأنهما على منهج فني واحد في التعامل مع الطبيعة والتغني بها ، واذا كان الصنوبرى قد نال اهتماماً وخصصت له أكثر من دراسة مستقلة فشاعرنا كشاجم وفي ضوء ما أشرنا اليه سابقا جدير بعناية أوسع ودراسة مستقلة تتناول مكانته الشعرية وسمات هذا الشعر ودلالته الاجتماعية .

والنظرة المتفحصة لديوان الشاعر كشاجم تؤيد قولنا وقول الآخرين بأن هذا الشاعر يقف مع الشعراء البارزين في فن الوصف في القرن الرابع للهجرة فهذا الديوان الذى يحتوى على اربعمائة وثلاث وتسعين قصيدة ومقطوعة قد خصص أكثره لفن الوصف ، وكانت حصة المديح خمس عشرة قصيدة فيها شيء كثير من الوصف أيضا .

أما الشعر الديني في مديح آل البيت فقصائده معدودة وكذلك الرثاء ، أما شعر الاخوانيات فقصائده ومقطوعاته لاتزيد على ثلاث عشرة قصيدة ولم يكن حظ الهجاء كبيراً فقد كتب الشاعر اثنتي عشرة قصيدة فيها شيء كثير من الوصف و « الكاريكتير » تؤكد نجاح كشاجم في هذا الفن ، ولعل القصائد الاخرى في الاديرة وشعر الطرد ترتبط في محتواها بشعر الوصف ووصف الطبيعة خاصة .

---

(١٧) ديوان كشاجم : ص ٣١٥ .

(١٨) المصدر نفسه : ص ٢٣٩ .

ويبدو لنا من هذا الاحصاء الاولي لفنون الشعر عند كشاجم أن توجه الشاعر الى فن الوصف وشعر الطبيعة ظاهرة تستحق الاهتمام شاركه فيها صديقه الصنوبري ، ولعل الثعالبي من النقاد الاوائل الذين ادركوا هذه السمة الظاهرة عند حديثه عن الشاعر السري الرفاء ويبدو لنا من النماذج التي ذكرها أنه يشير الى شعر الوصف والطبيعة باهتمام ، ولا تغيب هذه الظاهرة عن بصيرة الناقد ابي اسحاق القيرواني فهو يضع كشاجم مع الشعراء الوصافيين الذين أجادوا في طرائف الوصف وفي التغني بالطبيعة والرياض ويذكر كثيرا من نماذجه ومقطوعاته (١٩) .

ولابد من الاشارة هنا الى بعض الدراسات الادبية التي اهتمت بشعر كشاجم ولو أنها لم تفصل في دراسته ، وكان الدكتور أسعد طلس موفقا في ملاحظاته عن كشاجم وهو يدرس الحياة الاجتماعية للقرنين الثالث والرابع ، فقد أكد على سعة ثقافته وأثرها في دقة وصفه وأفقه الشعرى الواسع (٢٠) ، أما شفيق جبري فله مقالة عن شعر كشاجم أشار فيها الى سعة وتنوع الموضوعات التي طرقها الشاعر في وصفه كما لاحظ الدقة في التصوير وموهبة الشاعر في وصف الاشياء والامور الصعبة (٢١) .

وتبدو ملاحظات الدكتور سيد نوفل على ايجازها حسنة وخاصة في حديثه عن أثر طريقة ابي نواس في شعر كشاجم والربط بين الطبيعة والخمرة (٢٢) .

---

(١٩) زهر الآداب وثمر الالباب : أبو اسحاق ابراهيم بن على الحصري القيرواني ، تحقيق علي البجاوي ، دار احياء الكتب العربية ، ط ١ ، القاهرة ١٩٥٣ ، جـ ١ ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٣٠٩ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، جـ ٢ ، ص ٦٠٩ – ٦١٣ ، ٨٦٦ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ .

(٢٠) أسعد طلس : مجلة المجمع العلمي العراقي ، ص ٢٧١ – ٣٠١ .

(٢١) أنظر مجلة المجمع العلمي العربي : المجلد الثامن عشر ، مطبعة الترقي ، دمشق ١٩٤٣ ، ص ٣٠٤ – ٣٢٦ .

(٢٢) د. سيد نوفل : شعر الطبيعة في الادب العربي ، القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٤٥ ، ص ٢١١ – ٢١٢ .

أما مصطفى الشكعة فقد كانت ملاحظاته عن كشاجم أدق وأشمل وهو يتابع فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين وسنشير اليها في اثناء دراساتنا لسمات شعر كشاجم الوصفي واهميته الفنية والاجتماعية .

والولع بالطبيعة في شعر كشاجم لاحدود له فهو يعيش صورها ومباهجها ولا يكره شيئاً منها ، يحب ورد الباقلاء والكتان قدر حبه للنرجس والبنفسج والاقحوان ، فالطبيعة معه في شعر المديح كما هي معه في مجالس الشرب واللهو والغناء لذلك لا نجد ما يدعو الى الغرابة عندما يصبح وصف الطبيعة مقدمة أو جزءا من مقدمات المديح (٢٣) ، وهو عندما يصف خطوط القرآن الكريم لاينسى الرياض في اركان التشبيه فهو يقول :

وكأن الخطوط فيها رياض شاكرات صنعة الانواء (٢٤)

والصورة الحسية ذات البعد الجنسي تحتوي أركانها شيئاً عن الورد والرياض فالآثار التي تبقى على خدود وذراع حبيبته تذكره بغرس البنفسج في الجمار ، والنساء الجميلات ايام الحداد يراهن كشاجم بحس واندفاع ابي نواس الا أنه لاينسى الطبيعة والرياض في حديثه عنهن فهو يقول :

بيض لبسن حدادهن لمأتم فلبسن منه الليل فوق نهار
ولطمن منهن الخدود تأسياً وسكبن دمعا كاللجين الجارى
فكأنما تلك الخدود بنفسج وكأنما تلك البنان مداري (٢٥)

والصورة الروضية ليست حاضرة في مقدمة قصيدة المديح فحسب وانما في صفات الممدوح ، فصفات ممدوحة كما يقول :

وشبيه بالروض خلقاً وبالقطر نوالا وراحة بالريح (٢٦)

---

(٢٣) ديوان كشاجم : ص ٣٣٠ - ٣٣١ .
(٢٤) المصدر نفسه : ص ٢٤ .
(٢٥) المصدر نفسه : ص ٢٣٣ .
(٢٦) المصدر نفسه : ص ١٢٩ .

والطعام الجيد والمائدة الغنية المنسقة التي يعرف أصنافها الطباخ والشاعر كشاجم لاتذكره الا بالروض والنرجس فهذه الصور شاخصة قائمة في خياله وامام عينيه (٢٧) .

والكلف بالرياض وبالطبيعة عموماً يبدو واضحاً في مجالس الشرب واللهو والغناء ، فشعره في هذا الميدان صورة نواسية فيها حياة ولهو القرن الرابع وترفه :

في روضة جليت على أبصارنا ... فيما اكتسته من الحلي النابت
والغيث يبكي من خلال نباتها ... والبرق يضحك منه ضحك الشافت
والورد كالوجنات والانفاس من ... ظبي غرير عنده بائت (٢٨)

وتلاحق كشاجم الصورة الروضية و كأنها الصورة المرئية الدائمة التي يرى من خلالها الاشياء ويحس بها أيضا ، فالليلة الشتائية القارسة البرودة ترتبط بالرياض ايضاً فهو يقول :

هلما بكانونا جامحاً ... وقولا لموقدنا أجج
الى أن ترى لهباً كالرياض ... وناهيك من منظر مبهج (٢٩)

والطبيعة والخمرة موضوع قديم كان لأبي نواس يد في تطويره واغنائه من خلال ولعه بالخمرة ، ويحذو كشاجم حذوه وتتكاثر الصور التي تربط الخمرة بالروض والطبيعة الحية والجامدة ، الا أن هذا الولع بالخمرة لا يؤثر في شغف الشاعر بالطبيعة رغم تداخل موضوعات الراح والمرأة والطبيعة فالشاعر اعتاد أن يترك الخمرة ومجالسها لينصرف الى الطبيعة متلذذا بصورها ومباهجها ، والقصائد التي كتبها في وصف حياة الاديرة ومغانيها تشير الى ذلك ففي إحدى قصائده التي يبدأها بمقدمة ساخرة عن الاطلال على طريقة أبي نواس يقول :

---

(٢٧) المصدر نفسه : ص ٤٩٨ .

(٢٨) المصدر نفسه : ص ٧٧ .

(٢٩) المصدر نفسه : ص ٢٩ .

احسن من وقفة على طلـــــل قفر وذكر العيرانة الأجـــــد
كأس مدام جلا المدير بهـــا أم الليالي ووجدة الأبـــــد
نشربها شعلة بلا لهـــــب ونجتليها روحاً بلا جســـــد
هل أحد نال مثل لذتنـــــا بدير مران ليلة الأحـــــد
حدائق فوق جدول صـــخب وبانة تحت طائر غـــــرد
وخالع يشتري المجـــــانة بالعفـــــة والـــــغي بالرشـــــد (٣٠)

وفي ذكريات أخرى عن دير مران يبدو كشاجم عاشقا للشقيق والأقحوان ويعتاد هذا العشق ويعبر عنه بلغة الجنس كما يعتاد اهل الهوى عشق النساء(٣١) .

ولكشاجم ذكريات في دير مريونان حيث يعطي للطبيعة أكثر مما يعطي لشرب الراح وحديثه عن اللذاذة والقصف لا يتجاوز ابياتاً قلياة ينتقل بعدها الى النرجس والشقائق والبنفسج والاقحوان والنور والشيح والبهار ويجد متعة كبيرة في وصف الازهار (٣٢) .

ويقدم الشاعر كشاجم نماذج شعرية طريفة عن الطبيعة والراح ويرسم صوراً مبهجة مسرة يشرك فيها الطبيعة الحية والصامتة ويستحضر صوراً سمعية وبصرية رقيقة وناجحة عن الروض والغيث والطرد والراح والطير (٣٣) . والشاعر صاحب طرائف في التعبير عن بيئته فحقول الباقلاء جميلة مزدحمة برجال اللهو حيث يطيب فيها الغناء وشرب الراح (٣٤) ، ويوم سقوط الثلج يوم جميل يحلو فيه الشرب وتطيب مجالس اللهو فهو يقول :

---

(٣٠) المصدر نفسه : ص ١٤٨ .
(٣١) المصدر نفسه : ص ٢٤٩ .
(٣٢) المصدر نفسه : ص ٢٣٤ .
(٣٣) المصدر نفسه : ص ٥٥ – ٥٦ .
(٣٤) المصدر نفسه : ص ٦٨ – ١٥٣ .

فاشرب على الثلج من مشعشعة كأنها في انائهـا جمـــرة
قد جليت في البياض بلدتنـــا فاجل علينا الكؤوس بالخمرة (٣٥)

والطبيعة عند كشاجم ترتبط بالغناء والمرأة كماترتبط بالأوطان والذكريات الجميلة عن المدن التي أقام فيها أو زارها فمصر وايامه فيها تذكره برياضهـــا وجمالها فهو يقول :

أما ترى مصر كيف قد جمعت فيها صنوف الرياض في مجلس
السوسن الغض والبنفســـــــج والورد وصفر البهار والنرجس
كأنها الجنة التي جمعـــــت ما تشتهيه العيون والأنفـــس

وفي وصف كشاجم لمدينة حلب يبقى للطبيعة وجمالها القدر الأوفى فهو غير معني بأسواقها ورجالها وحكامها وانما يرى طبيعتها الخلابة ونهر قويق ، ويدعو عشاق الطبيعة الى زيارتها :

وما أمتعت جارها بلـــــدة كما أمتعت حلب جارهـــا
هي الخلد تجمع ما نشـــتهي فزرها فطوبى لمن زارهـــا
ولله فيها شهور الربيـــــــع حين تعطر أسحارهـــــا
اذا ما استمد قويق السماء بها فأمدته أمطارهـــــا (٣٦)

والثلجياتِ كما يسميها الدكتور مصطفى الشكعة أو وصف الثلج كما هـــو معروف ، فن مستحدث اهتم به شاعران في مجتمع بني حمدان (٣٧) ، وقد أشار آدم متز الى براعة الصنوبري في هذا الوصف وعده من أوائل الشعراء الذين تغنوا بالثلج ووصفه (٣٨) ، رغم أنه لم يكتب الا اشعارا قليلة فيه كما يظهر في ديوانه . واهتمام كشاجم بوصف الثلج أوسع وشعره أوفر من زميله في هذا

---

(٣٥) المصدر نفسه : ص ٢١١ وأنظر ص ٢٣٠ .
(٣٦) المصدر نفسه : أنظر ص ١٩٩ ، ٢١١ .
(٣٧) فنون الشعر : ص ٣٦٢ .
(٣٨) آدام متز : ص ١٣ .

الميدان رغم وجود ظواهر مشتركة تجمعهما في وصف الثلج وقضاء ساعاته في شرب الخمر .

وآدم متز لم يلتفت الى نجاح كشاجم في هذا الوصف المستحدث وحكم عليه بعدم اتساق الذوق (٣٩) ، والواقع ان ديوان كشاجم يضم قصائد ناجحة في الثلجيات أظهر فيها الشاعر مهارة فائقة وصورا جميلة متتابعة حوت براعة ودقة في استعمال الألوان وتتابع الصور السمعية والبصرية .

ويشترك كشاجم مع الصنوبري في تصوير الارض ضاحكة في اثناء تساقط الثلج ثم يتابع صوره الجميلة ، فالاغصان وهي مغطاة بالثلج كالدر الذى يسلك في قصب الزبرجد والاشجار عليها ملاءة من الثلج تحاول الرياح هتكها ، ثم لا ينسى الغناء والطرب في هذا اليوم الجميل (٤٠) ، وفي قصيدة أخرى يوفق كشاجم في اظهار التعاطف والحب بين الارض والسماء فالارض ضاحكة لكثرة ما ازدانت به من قطع الثلج كما في قوله :

كأنها والثلوج تضحكهـــا تعار ممن أحبه ثغـــــره

ويتابع كشاجم الصور الجميلة التي تنسجم مع ساعات اللهو والشرب فيقول :

ثلج وشمس وصوب غاديـــة فالارض من كل جانب غـــره
باتت وقيعانها زبرجـــــدة فأصبحت قد تحولت دره (٤١)

وكشاجم لم يوفق في الثلجيات فحسب وانما توجه الى وصف السحب والامطار والانهار وأظهر مهارة فائقة ودقة وقدرة على الوصف وتوليد الصور ، والواقع ان هذا اللون من الوصف فن قديم الا انه طور وأصبح أكثر براعة وفنا على يد الشاعرين الصنوبري وكشاجم وقد سماه الدكتور الشكعة (بالمائيات) (٤٢)

---

(٣٩) المصدر نفسه : ص ٤١٨ .

(٤٠) ديوان كشاجم : ص ٣٧٨ – ٣٧٩ .

(٤١) المصدر نفسه : ص ٢١١ .

(٤٢) فنون الشعر : ص ٣٦٥ .

ولكشاجم قصائد كثيرة في وصف السحاب فيها شيء كثير من الجدة والبراعة والطرافة والابتكار وتتابع الصور المتحركة وحسن استعمال الالوان كما وفق في اختيار البحور الشعرية المناسبة وكان الرجز من البحور المختارة في وصف السحب وفي احتواء المعاني القديمة المجددة باسلوب جميل فهو يقول :

غادية والشمس في طرادهـــا ... مكنونة كالسر في فؤادهـــا
مريضة تشكو الى عوادهـــا ... بياضها قد ضاع في سوادهـــا
تكاد لولا الماء في مزادهـــا ... تحرقها البروق باتقادهـــا
لها على الروضـــة في بعادهـــا ... تعطف الام على أولادهـــا
كأنها في سرعة ارتدادهـــا ... وحثها للفرع من اذوادهـــا
غريبة حنت الى بلادهـــا ... والارض للزينة في اعيادهـــا (٤٣)

ولكشاجم اهتمام واسع بشعر الطرد أظهر فيه مقدرة واضحة في وصف الحيوان ويبدو أنه من شعراء عصره البارزين في وصف جوارح الطير وقد استعان بخبرته الواسعة واطلاعه الغزير في هذا الباب ، ولعل نظرة فاحصة في كتابه « المصايد والمطارد » توضح لنا سعة هذه الخبرة واطلاعه الواسع والدقيق على الطرد وفنونه وتقاليده وخاصة حديثه في باب الجوارح (٤٤) ، وفي ديوان كشاجم قصائد عديدة في الطرد الذى يختلط احيانا كثيرة بوصف الطبيعة وقد ابدى الشاعر مهارة ودقة في وصف الحيوان وحركته واجزائه وشكله وألوانه ، ووصف الصيد بالصقر والبازي والباشق وغير ذلك من الطيور ، وتبدو طردياته موفقة في وصف الحيوان أكثر من نجاحه في الصيد وتجربته ولعل الصورة التي ننقلها عن وصف الصقر توضح ذلك فهو يقول :

أنعت صقراً جل باريه وعـــز ... ندباً اذا قدم ميعاداً نجـــز
مجتمع الخلق شديداً مكتنـــز ... أحمر رحب الزور مخطوف العجز

---

(٤٣) ديوان كشاجم : ص ١٦٤ وانظر ص ١٦٢ ، ٣٠٧ .

(٤٤) المصايد والمطارد : أبو الفتح محمود بن الحسين المعروف بكشاجم – حققه وعلق عليه الدكتور محمد أسعد طلس – مطبعة دار المعرفة – بغداد سنة ١٩٥٤ ص ٤٨ – ١٣٠ .

كأنما الريش عليه حمل خـــز　　كأنما حملاقة زنارقـز
كانما ينظر من بعض الخر ز　　أنمر من عز به في الصيد بـــز
في مثله تسعد اطرار الرجـــز　　يعدو على الظبي ويغتال الخزز
ويقتل الفز فما يخطيه فـــــز　　ويحتوي على الحمام والاوز (٤٥)

وكشاجم الوصاف ينظر نظرة فنية وطريفة في كل الاشياء التي تقع عليها عيناه ويلتقط الصور المختلفة ليصوغها شعرا وخبرته ككاتب لاتغيب عن فنه الشعري فهو يصف أدوات الكتابة وصفاً دقيقاً ويستعين بخبرته ويستعمل المصطلحات العلمية ويصف أدوات العلم وصف خبير (٤٦) ، فديوانه يحتوي على مقطوعات كثيرة في وصف القلم والبركار والاسطرلاب وأدوات الهندسة والفلك والتنجيم حيث ينقل صورا من صور تقدم العصر ومعارفه وحضارته، وخبرة كشاجم لا تقف عند حد معرفة ادوات الكتابة والعلم ووصفها فهو لايقصر في وصف آلات الطرب والغناء وصف خبير فهو يصفها وصفاً دقيقاً مفصلا يتناول شكلها وأجزاءها وعملها (٤٧) .

وشاعرنا كشاجم يحسن استعمال خبرته ومهنته في مجال وصف أدوات الكتابة والعلم كما يتصرف بخبرته المهنية تصرفاً حسناً في وصف الأطعمة وطريقة عملها بخبرة الطباخ الفنان فهو ينتقل من وصف الزلابية الى القطائف وموائد الطعام حيث يقدم صورة تفصيلية عن مائدة طعام أنيقة منسقة تعبر عن أناقة العصر وترفه وحسن ذوقه معبراً بنجاح عن صورة من صور الحياة الاجتماعية المترفة والمعقدة في القرن الرابع للهجرة (٤٨) .

---

(٤٥) ديوان كشاجم : ص ٢٧٨ وانظر في طرد ياته ، ص ١٩٥ ، ٢١٤ ، ٢٥٦ ، ٣٤٢ ، ٢٧٧

(٤٦) انظر فنون الشعر : ص ٣٦٦ وشعر الطبيعة ، ص ٢١١ والديوان : ص ٦٥ ، ٢٧ ، ٤٣٣ ، ٣٧ ، ٤٠ .

(٤٧) ديوان كشاجم : ص ٨٣ ، ١٠٧ ، ٢٥٤ .

(٤٨) الديوان : أنظر ، ص ١٤٤ – ١٤٥ ، ص ٤٦٢ – ٤٦٣ .

وكشاجم ابن عصره في التعبير عن حياة اللهو والترف والقصف وتذكرنا الصور التي ينقلها بحياة اللهو التي نقلها الينا شعر ابي نواس ، وكشاجم لايقصر في هذا الباب فهو يقول :

ما ترى في الصبوح أيدك الله فهذا أوان حث الصبوح
غسق راحل وديك صدوح فأجب دعوة المنادي الصدوح
وكأن الصباح أوجه رهبان تطلعن من فتوق المسوح
وأرى القطر قد تتابع يحكي دمع عيني أخي فؤاد قريح
وعلى الديكدان قد ران أذكى من عبير لقهوة مجدوح
وكباب مشرح أرهقته كف طاه لطيفة التشريح
ولنا قينة كهمك طيباً وأخ ماجد خفيف الروح
ورحيق معتق كسروي كدم الشادن الغرير الذبيح
ومغن يريك معبد في المجلس حذقاً ومعبداً في الضريح
وصنوف من الرياحين ليست من عرار ولا أفانين شيح
وسقاة مثل الظباء علينا تتهادى من سانح وبريح
كل ساجي العيون في ريقه البرء وفي لفظه سقام الصحيح (٤٩)

ويوفق كشاجم في صور أخرى عن حياة اللهو والترف فيصف مجلس قينة وما فيه من حياة لاهية وقصف وغناء ومرح ويصف الراقصات والعازفات والآلات الموسيقية وأناقة المجلس وترفه (٥٠) .

وطرائف كشاجم في الوصف كثيرة فيها الكثير من ترف الحياة الاجتماعية ولهوها وأناقتها فالقدح الذى انكسر وأحزن كشاجم استحق قصيدة رثاء منه وألواح الأبنوس توصف بدقة وللمشط وشكله قصيدة ، والمنديل الجميل يوصف بقصيدة أخرى يتناول فيها كشاجم لونه ورقته ، فالشاعر دقيق النظر فنان في

---

(٤٩) ديوان كشاجم : ص ١٢٤ – ١٢٥ .

(٥٠) المصدر نفسه : ص ٥٠ – ٥٦ .

نظرته يلتقط صور الحياة الاجتماعية ومظاهرها ويصوغها شعرا فيه الخبرة والطرافة ودقة الوصف .

وكشاجم بعد هذا العرض السريع لفنه الوصفي شاعر له خصوصية في هذا الميدان فقد استطاع ان يحقق نجاحا واضحا في مجال وصف الطبيعة وبأسلوب سلس أنيق لاترهقه المحسنات ولاتفسده الصنعة المعقدة كما كان في هذا الوصف ابن بيئته في نظرته الفنية الدقيقة وفي نقله لصور الحياة الاجتماعية وتطور العصر الاجتماعي والثقافي ، واذا كان الصنوبري قد عد رائداً في شعر الطبيعة فان هذا الاتجاه الفني في وصف الطبيعة الذى نما وازدهر في القرن الرابع للهجرة لايمكن ان يدرس وتحدد خصائصه وسماته بمعزل عن جهد كشاجم وأبداعاته في تطوير هذا الفن وشيوعه .